

٤ - التحيز للتفسيرات المادية: بحث مستخلص

من كتابات الدكتور عبد الوهاب المسيري

أ. حسام الدين السيد

بدأ الدكتور المسيري دراسة التحيز للتفسيرات المادية مع بداية دراساته في الصهيونية (باعتبارها نموذجًا ماديًا داروينيًا في التفسير)، ولكن يتعمق هذا الاتجاه ويصبح موضوعًا أساسيًا في كتابه عن الحضارة الأمريكية بعنوان «الفردوس الأرضي» (١٩٧٩)، ثم يتحول الموضوع الأساسي إلى نموذج تفسيري في كتاب «الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: نحو نموذج تفسيري جديد» حول الظاهرة اليهودية، ولكنها في واقع الأمر هي دراسة تطبيقية يحاول فيها أن يبين قصور النماذج المادية التفسيرية، أما في دراسته غير المنشورة «في الإبداع العربي» فهي تُختم بمحاولة لتوصيف النموذجين: المادي والمادي الروحي.

بين المخطئين والمهرجين

ورد في كتاب الفردوس الأرضي أن المفكر الأمريكي «الترانسند» قال: «إن بنيت قلاعك في الرمال، لا تندم على ما فعلت فهذا هو المكان الذي يجب أن تبنيها فيه، وما عليك الآن إلا أن تضع قاعدة تحتها». فالشعب الأمريكي يستجيب للواقع استجابة حرة لم تقررها من قبل عادات اجتماعية أو أية عادات خاصة استجلبوها من أوروبا معهم، فهم قد طرحوا هذا التاريخ جانبًا ليدخلوا في علاقة مع عالم لم يسبق له مثيل، عالم محفوف بالمخاطر ولا يمكن التنبؤ به، الدخول في تجربة لا تُعرف نتائجها مقدمًا - هذا هو جوهر تجربة الرجل الأبيض في أمريكا. إن الرجل

الأبيض في أمريكا هو الرجل البراجماتي بالدرجة الأولى والسوبرمان الحق والكاوبوي الذي لا يهاب شيئاً ويبنى بيته بجوار البركان، كما يخاطر بكل شيء فيفقد كل شيء أو يربح كل شيء - الصدفة والحريّة المطلقة.

هذا المجتمع الذرائعي لا يشغل نفسه بالحقيقة النسبية التاريخية ولا يبحث إلا عما يزيد من راحته وهنائه الماديين، والباحث عن الحقيقة سيجدها في كل ما يزيد الإنتاج وما يُثبت كفاءته بغض النظر عن قيمته الإنسانية، وهذا تعريف كمي للحقيقة يحولها إلى حُكم يمكن تجزئته وقياسه، وهو تعريف «ديمقراطي» لأنه يساوي بين كل الأشياء وينفي كل تدرج في عالم المعرفة والقيمة، فالماديات تساوي المعنويات، والروح تساوي الجسد، والجميل لا يختلف عن القبيح، فالمعيار الوحيد هو النجاح.

فالحضارة الغربية الحديثة حضارة يمكن أن نسميها وثنية تستند إلى مبدئين هما المنفعة واللذة، وهما في واقع الأمر نفس الشيء في النهاية فما ينفع هو ما يمتّع، وما يُدخل المتعة على الإنسان هو ما ينفعه، وهذه هي الطريقة التي يتم بها تعريف الخير والشر في غياب أية مقاييس دينية، فتصبح الذات إذن هي المرجعية الوحيدة وتصبح المصلحة ما يشبه المطلق الأخلاقي.

إن الإنسان الغربي إنسان يعيش في عالم الحواس الخمس، وعالم المنفعة التي تم تعريفها بشكل مادي واللذة التي تم تعريفها هي الأخرى بشكل مادي، وقد خرج هذا الإنسان من تحت عباءة ميكياثيلي ثم دارون ثم نيتشه، وهو الذي تحاور مع الجنس البشري من خلال المدافع والقنابل التي أطلقتها جيوشه الامبريالية علينا وعلى جيراننا، وهو يكتسب شرعية من قوته، ويدرك هذه الحقيقة ويعيها تماماً، والحديث عن العقلانية لا يخرج عن نطاق كتب الفلسفة ولا ينصرف إلا إلى الإجراءات أو قوانين اللعبة. أما صياغة العالم ذاته فهي عملية تقوم بها الجيوش الغربية المنتصرة التي تحقق الأهداف الاستراتيجية التي حددتها المجتمعات الغربية لنفسها.

ومن هنا أكدوبة احترام القانون الدولي، فهي دعوة لتقبّل عالم ليس

من صنعنا، وأن نلعب اللعبة بقوانين لم نساهم في وضعها، ومن ذا الذي يتحدث عن «الغاية تبرر الوسيلة» وعن «الصراع من أجل البقاء» و«البقاء للأصلح»، وعن أخلاقيات المحبة والتسامح باعتبارها أخلاقيات العبيد، وعن أخلاقيات القوة التي تتجاوز الخير والشر باعتبارها أخلاق السادة؟ ممن تعلمنا كل هذه الحكم؟! ولكن مع هذا يجب أن نستفيد من أخطاء الآخرين، ونحن أمامنا فرصة ذهبية في عالمنا العربي (فمن يرتكب خطأ ما فهو بطل مأساوي، أما من يرتكب أخطاء الآخرين فهو مهرج).

التحيز المعرفي والإدراكي

أزعم أن الأمة العربية الإسلامية تعاني الآن من حالة تبعية إدراكية كاملة إذ إننا نستورد نماذجنا المعرفية فيما نستورد من أشياء من الغرب؛ بل إننا بدأنا ننظر لأنفسنا من خلال عيون غربية ونحكم على أنفسنا بمعايير مستقاة من «بلاد برة» هذه التي ملكت علينا شغاف قلوبنا.

والنتيجة أننا أصبحنا منكسرين من الداخل، حتى حينما نطرح أكثر الشعارات ثورية وانتصارًا، وهذا ما أسماه أحد علماء الاجتماع الغربيين «امبريالية المقولات» أي أن تكون المقولات الإدراكية مستقاة من الآخر، فيرى الإنسان نفسه متخلفًا مهما بذل من جهود ومهما أنتج من روائع، ويحكم على نفسه بالهزيمة حتى قبل دخول المعركة، وقد سمعت مرة بحثًا لأحد علماء الاجتماع المصريين استخدم عدد ساعات الاستماع للموسيقى السيمفونية كمعيار للتقدم والتخلف، ويا له من معيار هزلي سخيف يؤدي إلى نتائج عنصرية كريهة.

ومن الحقائق الأساسية التي تجابه الإنسان في القرن العشرين أن النموذج المعرفي العلماني العقلاني المادي الذي تستند إليه الحضارة الغربية الحديثة أصبح يشغل مكانًا مركزيًا في وجدان معظم المفكرين.

ويعود تاريخ ظهور هذا النموذج إلى القرن السادس عشر حين بدأ الإنسان الغربي في صياغة رؤيته للكون على أساس استبعاد كل ما هو روح وغيب ويبقى ما هو عقل وحس ومادة، وأصبح ما يقاس هو وحده

الموجود، وما غير ذلك فلا وجود له، وأصبح العقل وحده هو وسيلة الإدراك والمعرفة الوحيدة، عبّر ذلك الموقف عن نفسه في كل مجالات المعرفة، وفي جميع النظريات، وأعاد الإنسان الغربي تنظيم مجتمعه بما يتفق مع هذه المعايير، فنشأت الحكومة المركزية المطلقة والمدن والجيوش التي انطلقت إلى كل أرجاء العالم، وبدأت التجربة الاستعمارية الغربية التي انتهت بالاستيلاء على معظم بلدان العالم واقتسامها ونهبها.

وليس من المستغرب أن نموذجًا معرفيًا ماديًا بسيطًا إلى هذه الدرجة، عنده مقدرات تعبوية وتنظيمية مرتفعة - بسبب بساطته هذه - يحقق انتصارات باهرة، على المستويين المادي والمعنوي، في مراحل الأولى.

وقد ترجمت انتصارات المشروع المعرفي العقلاني المادي الغربي نفسها إلى إحساس متزايد بالثقة بالنفس من جانب الإنسان الغربي وإلى إيمانه بأن رؤيته للعالم هي أرقى ما وصل إليه الإنسان، وأن التاريخ البشري كله يصل إلى أعلى مراحل في التاريخ الغربي الحديث.

وقد دخل العالم الإسلامي في صراع مرير مع هذا التشكيل الحضاري من البداية، وقامت جيوش الدولة العثمانية بحماية دار الإسلام، في الشرق العربي وفي أماكن أخرى من الهجمة الاستعمارية، العلمانية الغربية، ولذا التف الاستعمار الغربي حول الدولة العثمانية فاحتل أطراف إفريقيا، والهند، ووصل إلى العالم الجديد، وظل العالم الإسلامي ذاته بمنأى عن جيوشه ولكن مع أزمة الدولة العثمانية بدأت الجيوش الغربية في غزو المشرق الإسلامي، ويعد تاريخ وصول جيوش نابليون إلى مصر هو بداية المحاولات الغربية الرامية لتقطيع أوصال الدولة العثمانية، والعالم الإسلامي، وقد تبع هذا الغزو استيلاء الروس على الإمارات التركية، والإنكليز على قبرص ثم مصر إلى أن تم تقسيم العالم الإسلامي.

ونتيجة لبساطة النموذج المعرفي العقلاني وجاذبيته، أصبحت محاولات اللحاق بالغرب هي جوهر مشروعات النهضة جميعها في العالم الثالث بما في ذلك العالم الإسلامي:

(أ) ويتضح هذا أكثر ما يتضح في الفكر العَلَماني الليبرالي، فهو فكر قد حدد «النهضة» - ابتداءً - بأنها نقل الفكر الغربي والنظريات الغربية بأمانة شديدة وتقبل النموذج العَلَماني، العقلاني المادي، الغربي بكل مزاياه وعيوبه «بخيره وشره»، وإعادة صياغة المجتمعات العربية والإسلامية وسلوك أفرادها حتى تتفق مع المعايير التي يفترضها هذا النموذج، وقد عبر عن هذه النزعة ما يسمى بجيل النهضة من الليبراليين أمثال أحمد لطفي السيد وشبلي شميل وسلامة موسى وغيرهم، ومنهم من كان متطرفاً فدعا إلى التفاهات المسرحية، مثل ارتداء القبعة وكتابة العربية بحروف لاتينية، ومنهم من كان أكثر تعقلاً وابتعاداً عن مثل هذه الأشياء، ولكن أعضاء الفريقين، المتطرف منهم والمعتدل، كانوا في نهاية الأمر دعاة تغريب وتحديث وعلمنة على الطريقة الأوروبية.

(ب) التيار الثاني هو التيار اليساري العربي.

فعلى الرغم من أن موقف اليساريين العرب موقف نقدي من الرأسمالية والليبرالية السياسية والاقتصادية الغربية فإنهم يصُدرون عن تقبل مبدئي للنموذج العَلَماني العقلاني المادي وللرؤية العَلَمانية للإنسان والكون، وهو النموذج الكامن وراء تجليات الحضارة الغربية، ولذا لا ينصرف النقد اليساري للحضارة الغربية إلا إلى جوانب التنظيم السياسي والاقتصادي.

(ج) وقد مارس النموذج العَلَماني العقلاني المادي شكلاً من أشكال التراجع في العالم العربي منذ الأربعينات، وتمثّل هذا في ظهور حركات إسلامية، مثل حركة الإخوان المسلمين، وجماعات اشتراكية قومية، مثل مصر الفتاة، وفي تبلور الفكر العربي القومي وقيام تنظيمات سياسية تحاول ترجمته إلى واقع، هذه الحركات كلها تفترض بشكل أو بآخر قصور النموذج العَلَماني الذي ينظر للإنسان على أنه مادة عامة تخضع في كل جوانبها للقوانين المادية، ولذا فهي تحاول طرح نموذج بديل، مؤكدة خصوصية الإنسان، ومن هنا كان الحديث عن الهوية العربية وتأکید التراث، ليس بوصفه مصدرًا للقيمة ولكن بوصفه مصدرًا للهوية (الإثنية).

ولكن رغم أهمية هذه المحاولة في أنها تشكّل تراجعاً عن النموذج العَلَماني العقلاني المادي ومراجعة له ومحاولة الاقتراب من التراث، فإن الهدف هو دائماً اللحاق بالغرب مع الحفاظ على هويتنا بقدر الإمكان، على أن تتطور الهوية لتواكب العصر. فهذا التيار إن هو إلا محاولة أخرى لتبني النموذج المعرفي العَلَماني العقلاني المادي يأخذ - هذه المرة - شكل إعادة صياغة للهويّة من الداخل على أسس غربية مع الحفاظ على هيتها الخارجية العربية، ويعاد اكتشاف التراث من منظور غربي؛ بل يعاد صياغته بأثر رجعي، فنكتشف أن المعتزلة عقلانيون، وأن الجرجاني أسلوبي، وأن الاعتراب موجود في تراثنا في شعر الصعاليك، وأن ابن خلدون اكتشف ٨٠٪ من قوانين المادية الجدلية (كما ذكر أحد الأساتذة الماركسيين أي أن ابن خلدون كان ماركسياً قبل ماركس ومن هذه الماركسية الكامنة يكتسب ابن خلدون شرعيته لا من تفكيره العربي الإسلامي) أي أن أهمية التراث لا تعود لأهميته في حد ذاته، وإنما بمقدار اقترابه أو ابتعاده عن النموذج العَلَماني العقلاني المادي.

(د) والمدهش أن محاولة اللحاق بالغرب لها أصدائها العميقة في الاتجاه الإسلامي. فكثير من المفكرين الإسلاميين يتقبلون النموذج العَلَماني العقلاني المادي عن وعي وعن غير وعي؛ بل ويحولون هذا النموذج إلى المثال الذي يُحتذى والنقطة المرجعية الصامتة، بحيث يصبح المشروع النهضوي بالنسبة لهم هو أيسر الطرق للحاق بالغرب.

بل إن بعضهم يذهب إلى حد أنه يرى أن المشروع الإسلامي هو خير تطبيق للنموذج العقلاني الذي يمكن تبنيه بعد إدخال بعض التحسينات الثانوية، مثل إضافة الصوم والصلاة وفرض الحجاب على المرأة المسلمة واستبعاد اختلاط الجنسين، ومرة أخرى يعاد اكتشاف الدين، فنكتشف أن الدين قد سبق العلم، وأن القوانين العلمية كلها في القرآن، وأنه لا يوجد أي تعارض بين الدين والعلم، ويتبارى المتبارون في إثبات أن الإسلام يكتسب شرعيته بمقدار اقترابه من النموذج العلمي المادي الغربي، وبالتدريج يتم تغريب النُسق الإسلامي بحيث يتفق مع النموذج العقلاني المادي.

والسمة الأساسية للمشروعات الحضارية السابقة كلها - برغم اختلافها وتصارعها - أنها جعلت الغرب نقطة مرجعية، نهائية ومطلقة أي أنها استبطنت رؤية الغرب لنفسه ومشروعه الحضاري ولنموذجه المعرفي المادي، وأصبح الغرب هو هذا التشكيل الحضاري الذي سبقنا والذي علينا اللحاق به مما يفترض وجود نقطة واحدة تحاول المجتمعات كلها الوصول إليها، وأن ثمة طريقة واحدة لإدارة المجتمعات ولتحديد تطلعات البشر وأحلامهم وسلوكهم - أي أنه توجد رؤية واحدة عالمية للإنسان والكون، ومن ثم تحول الغرب من بقعة جغرافية وتشكيل حضاري له خصوصيته ومفاهيمه إلى البقعة التي يخرج منها الفكر العالمي والإنساني الحديث! وأضفى هذا شرعية هائلة على عملية اللحاق بأوروبا، وأصبح العلم الغربي الذي يسعى المثقفون المسلمون إلى تحصيله علمًا عالميًا حديثًا، وأصبح الرضوخ الفكري للغرب والتبعية الفكرية له تسمى بالانتماء للعصر الحديث وبالتقدمة والموضوعية.

ونتيجة هذا الوضع أهمل المثقفون العرب تراثهم؛ بل أهملوا التراث العالمي فمن منا يهتم حقًا باليابان والصين، ومن منا يدرس اللغة السواحلية؟.

لقد استنماد الجميع لتحصيل ما يسمى «بالتراث العالمي» دون أي تساؤل بخصوص المفاهيم الإدراكية الكامنة فيه أو بخصوص جذوره التاريخية أو الآليات الاجتماعية التي أدت إلى ظهوره، وأصبحت مهمة الباحث هي تلقي المعلومات التي يقال لها «عالمية» والتي هي في واقع الأمر غربية، ثم إعادة إنتاجها على هيئة دراسات وكتب تظل حبيسة المفاهيم الغربية وتساهم في تطوير المعارف والعلوم الغربية، وفي فصل الباحث عن معجمه الحضاري الإسلامي والعربي.

وقد تكون داخل العالم العربي الإسلامي مجموعة من المتعلمين (في مقابل المثقفين) يشغلون وظائف قيادية وغير قيادية، فمنهم الصحفيون والمدرسون والأساتذة الجامعيون والإعلاميون والمترجمون الذين استوعبوا تمامًا النموذج المعرفي العلماني الغربي واستبطنوه وتحولوا إلى أدوات توصيل

جيدة له ولقيمه، أحياناً عن وعي، وفي معظم الأحيان عن غير وعي، وهذه الفئة من المتعلمين تقسم بأنها عندها ملكات فكرية استيعابية ضخمة، وهم عادة مجدون في التحصيل والحصول على الشهادات، ولكن مقدرتهم النقدية محدودة للغاية.

هذه الفئة هي أخطر القطاعات الثقافية التي تقوم بعملية التغريب وإعادة صياغة القيم وإشاعة النموذج العلماني الغربي. فعصر النهضة في الغرب - كما تعلموا في الكتب التي درسوها - هو العصر الذي بُعث فيه الفنون والآداب وُضع الإنسان في مراكز الكون (وليس عصر ميكيافيلي وهوبز أيضاً وبداية التشكيل الاستعماري الغربي وإبادة الملايين) والثورة الفرنسية هي ثورة الحرية والإخاء والمساواة وإعلان حقوق الإنسان (ليست الثورة العلمانية الأولى التي عبد الإنسان فيها العقل والتي قامت دولتها المركزية بتصفية كثير من الجيوب الدينية والإثنية وقامت بأول عملية إبادة منهجية حديثة في العصر الحديث في فاندنيه) والتقدم هو الحقيقة الأساسية في حياة البشر وتاريخهم (وليس له أي ثمن فادح قد يفوق في معده ما قد تم تحقيقه من أرباح مادية) ونيته هو فيلسوف الإنسان الأعظم (وليس فيلسوف اختفاء الله والإنسان) والبنوية والتفكيكية هي مدارس في التحليل الأدبي (وليس مناهج تُضمّر رؤية معادية للإنسان).

نموذجان متقابلان

* في مقابل هذا النموذج المادي الذي لا يتجاوز الواقع من خلال الإيمان بمقدرات الإنسان اللامتناهية والذي ينتهي بالدارس في عالم اليأس والقنوط والهزيمة وعالم الحسابات التي تتحول إلى سجن رهيب، نطرح فكرة «الإنسان/ السر» الذي يدخل في علاقة مع المادة ولكنه يتجاوزها دائماً.

فالرؤية الأولى «الإنسان/ المادة» تنظر للإنسان باعتباره كياناً مركباً ما يختلف عن كل الكائنات الأخرى لا في نوعه وإنما في درجة تركيبته التي يمكن تفسيرها «في نهاية الأمر» بما هو مادي وطبيعي - أي أنه يمكن تفسير الإنسان كل الإنسان من خلال قوانين الطبيعة.

وهناك الرؤية الأخرى التي ترى الإنسان باعتباره كيانًا فريدًا مركبًا مختلفًا عن كل الكائنات الأخرى اختلافًا عميقًا في النوع والدرجة.

ومن الممكن تفسير كثير من جوانب ظاهرة الإنسان بالعودة إلى المادة وقوانين الطبيعة، ولكن الإنسان مع هذا - حسب هذه الرؤية - يظل شائعًا، يستعصي في كليته على التفسير المادي الكمي.

فعلماء الاقتصاد الماديون (من الشرق والغرب) يرون الإنسان على أنه مجموعة من الحاجات التي تشبع، قد تُعرّف هذه الحاجات بشكل كمي سوقي أو بشكل شبه كمي مصقول. لكنها تترجم نفسها في نهاية الأمر إلى «أرقام»، وإلا لما أصبح علمًا. وفي علم النفس الحديث تُفسّر الدوافع النفسية في نهاية الأمر إما تفسيرًا سلوكيًا سوقيًا أو تفسيرًا أكثر صقلًا عند فرويد مثلاً. ولكن كل شيء لا بد أن يرد إلى مقولة ما قابلة للفحص والقياس.

ويمكن الحديث عن قيم «روحية» داخل النماذج المادية التفسيرية ولكن كلمة «روحية» في مثل هذا السياق هي من قبيل المجاز وحسب (كما يقول الأمريكيان مثلاً «يا لها من تجربة روحية رائعة بعد أكل الآيس كريم أو مضاجعة النساء) لأن النموذج المادي لا يقبل بما وراء المادي - أي الروحي.

إن الإنسان/ السر، يختفي بل لا بد أن يختفي لتظهر مكانه الأرقام الباردة التي لا تستعصي على القياس أو الحلول الهندسية - أي أن النموذج المادي يسقط دائمًا في قوانين الطبيعة والمادة والهندسة والميكانيكا والجبر أو الصيغ البسيطة التي تقترب منها. فهو يفسر ما هو إنساني بما هو غير إنساني، ويفسر ما هو حي بما هو ميت، ويفسر ما هو سر بما يقاس ويحسب.

وقد عرّف «ماكس فيبر» الترشيح عدة تعريفات من أهمها توظيف الوسائل بأكثر الطرق كفاءة (أي رشدًا) لخدمة أهداف معينة فعملية الترشيح تنصرف إلى الوسائل ولا تنصرف بأية حال إلى الأهداف، وهو يرى أن

الحضارة الغربية هي حضارة أفرزت فكرة الترشيده هذه، وأنها تتسم بمعدلات عالية من الترشيده.

على كل حال كان «فيلبر» قد عرّف الترشيده من خلال صورة متعينة حين قال: إن الترشيده هو تحويل العالم بأسره إلى حالة المصنع - أي تحويله إلى نسق آلي منظم يتم استخدام كل شيء فيه بكفاءة، خاضع للحسابات الكمية، فتوظف الطبيعة الخارجية وتتحول إلى مصدر للمادة الخام، وتوظف الطبيعة البشرية ويتحول الإنسان إلى وحدة اقتصادية رشيدة تتحرك داخل إطار بيروقراطي لا شخصي، فالعالم يصبح نسقاً آلياً ينتج سلعاً بكفاءة شديدة، ولا يهم المضمون الخلقى أو الإنساني لهذه السلعة، إذ ما يهم هو تعظيم الإنتاج، ومن هنا أقول متهكماً إن عملية الترشيده تعني في واقع الأمر أن يفقد الإنسان رشده تماماً في نهاية الأمر.

* وللأسف ثمة ترادف في عقل الكثيرين بين النموذج المادي من جهة والنموذج العلمي من جهة أخرى، وهو ترادف مُخلٍ للغاية، ففي تصوري أن النموذج العلمي أو الموضوعي هو النموذج الذي يتمتع بأعلى درجة تفسيرية عن غيره من النماذج! فكلما ازداد النموذج تفسيرية كلما ازداد علميةً وموضوعية، وإذا كانت النماذج المادية قادرة على تفسير بعض الظواهر، وبالتالي فهي علمية في هذا المجال، فهي قاصرة عن تفسير ظواهر أخرى في مجالات أخرى، ولذا فهي تصبح غير علمية بالمرّة، وتكمن المفارقة في أن النماذج المعرفية المادية التي يقال لها «علمية» حينما تُطبق على ظاهرة الإنسان ليست واقعية بما فيه الكفاية، فهي تذكر جانباً أساسياً في الإنسان ولذا فمقدرتها على التفسير والتنبؤ قوية على المستوى القريب، ضعيفة على المستوى البعيد منعدمة تقريباً في نهاية الأمر... ومن هنا كانت دهشة أصحاب هذه النماذج: دهشتهم في الجزائر، وفي فيتنام، وفي أفغانستان - إذ إنّ الحسابات الكمية والعلمية الدقيقة تقول: إن الفرنسيين كانوا لا بد أن ينتصروا في الجزائر، وأن الأمريكان كانوا لا بد أن ينتصروا في فيتنام، وأن السوفييت لا بد أن ينتصروا في أفغانستان، ولتضع المعلومات في أي حاسوب وستجده يهز رأسه مؤكداً لك انتصار من يُشبع معظم الحاجات ويقمع البشر.

وقد يكون من المفيد وصف كل من النموذجين اللذين نتحدث عنهما: النموذج المادي الذي يرد كل شيء بما في ذلك وعي الإنسان واختياراته الأخلاقية في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير - لقوانين الحركة المادية، والنموذج الآخر الذي نسميه مادياً/ روحياً، لأنه لا يفسر الظاهرة الإنسانية باللجوء للنماذج المادية وحدها، أو النماذج الروحية وحدها، والنموذج المادي هو الذي ساد في الغرب الحديث وهيمن عليه.

تباين النماذج

* ويتباين إدراك التحيز إلى الغرب وضد التراث عندنا بتباين النموذج الإدراكي، وذلك لأن البعض حتى عندما ينظر لنفسه ينظر بعين غريبة.

* ذلك النموذج الغربي المادي يذهب إلى أن الخالق غير موجود، وإن وجد فهو إما لا علاقة له بآليات معرفة العالم المادي، أو أنه متوحد بالمادة بحيث يصبح هو والمادة (الطبيعة والتاريخ) شيئاً واحداً، ومن ثم فالخالق لا يتجاوز قوانين الطبيعة والمادة والتاريخ، ويمكن أن تحل محله مطلقات مادية مثل قوى التاريخ وقوانين الطبيعة ووعي الطبقة العاملة بنفسها.

وباختفاء الخالق من أي فكر فإن الإنسان يشغل مركز الكون ويصبح العالم مادة وحسب، ويبدأ النموذج المادي في احتواء الظواهر كلها، وحيث أن كل شيء هو مادة يتم تفسير الإنسان كظاهرة بما هو أدنى منه، فيرد الإنسان إلى المادة أي أن النزعة الإنسانية الإلحادية تبدأ بتعظيم الإنسان ووضعه في المركز، وتنتهي بأن تضعه على هامش المادة أو تحوله إلى مجرد جزء منها - لا حدود ولا أهمية خاصة له، وكذلك يكون العقل الإنساني مادة محضة، وهو يتوصل إلى المعرفة من خلال استقرار معطيات مادة يدركها عن طريق الحواس الخمس.

وعلى هذا تصبح المعرفة يقينية، تطمح للوصول إلى مستوى البدييات الرياضية، ومنهج دراسة الإنسان والطبيعة واحد، ولذا فالحديث

هنا دائماً عن وحدة العلوم التي تفترض وحدة الإنسان والطبيعة .

والهدف من المعرفة هو معرفة قوانين الواقع للتحكم فيه وغزوه والسيطرة عليه . فالنموذج المادي يؤدي إلى ظهور ما نسميه «الرؤية المعرفية الإمبريالية» حيث يصبح العالم بأسره مادة نسبية توّظف وتصبح ساحة قتال وصراع، فيها الإنسان ما هو إلا ذئب لأخيه الإنسان، والبقاء دائماً للأصلح والأقوى، والخطاب الوحيد هو خطاب الغزاة .

* والنموذج التفسيري الذي نقترحه يصدر عن فكرة أن الظاهرة الإنسانية فريدة ومركبة لأقصى حد، وأن القانون الطبيعي لا ينطبق كلية على الإنسان كما أسلفنا، ومن هنا فنحن نرى أن العالم ليس كلاً عضوياً، وأن إشباع الحاجات لا يمكن أن يحل محل الهوية، وأن الانتماء للوطن وللأسرة أمر حيوي ومهم للإنسان، وأن القيم الروحية والإيمانية هي مصدر أساسي للسلوك الإنساني، وأن هذه القيم واقعية أي أنها جزء من الواقع الإنساني، على الرغم من أنها لا مادية ولا كمية، وأنه لا يمكن فهم سلوك الإنسان ككيان متعين دون أخذ هذه القيم والدوافع السلوكية في الاعتبار .

هذا لا يعني أننا نستبعد العناصر المادية من نموذجنا التفسيري، فنحن لو فعلنا ذلك لصرنا في أحادية النموذج المادي وسوقيته، ولذا فنحن لا ننكر أن كثيراً من الأسباب الاقتصادية والسياسية والسكانية لها دورها ونراها ضرورية في تفسير الظاهرة الإنسانية، ولكنها ليست كافية مع هذا، فهي في حد ذاتها قاصرة من الناحية التفسيرية، فكما أننا لا يمكننا أن نرّد الواقع المادي لإدراك الإنسان له، لا يمكن أن نرد الإدراك في نهاية الأمر للواقع المادي، أي أنني اقترح الاستقلال النسبي للإدراك الإنساني عن الواقع، وللواقع عن الإدراك، ووجود مسافة بينهما، حتى لا يتطابق الواحد مع الآخر وحتى يتفاعلا .

أما النموذج المادي/ الروحي، وهو الذي نقترحه لإدراك الواقع والتعامل معه، فهو يصدر عن الإيمان بأن الخالق موجود ومُعَايِرٌ للإنسان، للحوادث وللمخلوقات ومنزّه عن الطبيعة والتاريخ، ولا يمكن رده إلى

القوانين المادية أو الاجتماعية أو التاريخية، ولا يمكن فهم الكون بكل تركيبته بدون افتراض وجوده، فهو واجب الوجود.

والله يحد الإنسان بحدوده، ولكن رغم محدودية الإنسان فإنه لا يمكن تفسيره بما هو أدنى منه، إذ تفسّر جوانب منه وحسب تفسيراً مادياً، ولكن تظل هناك جوانب تستعصي على التفسير المادي تتطلب نموذجاً تفسيرياً آخر مرتبطاً بما هو أعلى من الإنسان، لهذا السبب يتمتع الإنسان بقداسة خاصة في الكون تحفظ له مركزته وهويته المقدسة (السر).

أما العقل الإنساني فهو مادة، ولكن درجة تركيبته تجعله مختلفاً نوعياً عن المادة الطبيعية، ومن ثمّ يمكن للعقل تجاوز الطبيعة في بعض جوانبها. وهو يتوصل إلى المعرفة من خلال الاستقراء، وكذلك من خلال الاستنتاج، ومن خلال الحواس الخمس والعاطفة والحدس، وعلى ذلك تصبح المعرفة طموحة إلى الوصول إلى درجة من اليقين، ولكن اليقين ليس مطلقاً، ولذا المدرك يقنع بمستوى غير كامل من اليقين، ودراسة الإنسان والطبيعة لهما منهجان مختلفان ويكمل الواحد منهما الآخر.

والهدف من المعرفة، هو معرفة الواقع للتواصل معه والاستفادة منه والاتزان معه، فنحن لسنا وحدنا في هذا الكون، وإنما استخلفنا فيه لُعمرانه، ولذا فالمعرفة ليست معرفة الكون وحسب؛ بل معرفة للذات أيضاً، وبما أن المعرفة الكاملة مستحيلة، فالتحكم الكامل مستحيل أيضاً، ومن هنا يظهر عالم يتسم بشيء من الرخاوة، توجد فيه إمكانية التواصل والتراحم بين البشر، توجد فيه إمكانية الاختيار الحر حسب قيم عالمية (مطلقة) يقبلها الجميع، ومن ثمّ فهو عالم يمكن أن يظهر فيه خطاب المحبين.

* * *